علي بن هندي[1]

أبو الحسن، قاضي حمص، ولد سنة أربع مئة، وكان فاضلاً [نزهاً عفيفاً فصيحاً]، وتوفي بدمشق ودفن بالباب الصغير، ومن شعره: [من البسيط]

تَخلُّقٌ حسنٌ إنْ لم يكُنْ خُلُقٌ تورُّعٌ حسنٌ إنْ لم يكُنْ ورَعُ
فما أرى قيمة الدنيا وإن عظُمَتْ أنْ تأتيَ الحرَّ ما من نفسِه يضَعُ

السنة الخمسون والأربع مئة

فيها استولى البساسيري على بغداد، وأخرج منها القائم بأمر الله، ودرس آثارها [والمعالم]، وجرى على الخليفة وداره وأهله منه ما لم يَجْرِ من الكفار، ثم إن الله تعالى أخذ [له] منه بالثأر [وكان مآلُه إلى الاستئصال والبوار]، وردَّ [اللهُ] الخليفةَ إلى مقرِّه، وسنذكر ذلك في موضعه إن شاء الله تعالى.

وفي المحرَّم صرف أبو علوان ثِمالَ بن صالح بن الزَّوقلية أمير حلب منها، وأقطعه عكَّا وقيسارية وصيدا والبلاد الساحلية عوضاً عنها، وولَّاها صاحبُ مصر لأبي علم بن ملهم الخويلدي، وخرج صحبتَه القاضي ابن أبي عقيل قاضي صور حتى تسلَّم ابنُ ملهم حلبَ، وعاد القاضي إلى صور، وكان بقلعة حلب أبو نصر بن أبي عمران الداعي، فرتباه بحلب، وعاد الداعي إلى مصر، وفي المحرَّم بعث السلطان بِتارْتِكِين إلى الخادم الخاص ومعه فَرَجيَّة ديباج مطمومةٌ بالذهب، وعمامةٌ مكبة مذهبة، وفرس بمركب ذهب إلى أخيه إبراهيم ينَّال، وأحبَّ أن يزُفَّه بملابس الخليفة، وكان إبراهيم بالموصل، وأمره السلطان بالمسير إليه عاجلاً.

وفي صفر ورد الخبرُ بأن البساسيري أقطعَ الرحبة لخاصَّته، وارتفاعها ثمانون ألف دينار، ووعد بإنفاذ ستين ألف دينار من مصر في كلِّ سنة، مضافةً إلى ذلك تنصرف في إقامة العسكر البغداديين الذين معه، وكتب إليه من مصر أن لا يعبر الفرات، ولا يتعرَّض لأعمال العراق إلى أن يرى صاحب مصر رأيه في المسالمة أو المنافرة.

---

(١) تاريخ دمشق ٤١/ ٤٢٦ـ٤٣٣ .

وقدم إبراهيم ينَّال بغداد سلخ المُحرَّم، وقيل: في صفر.

وفي صفر قصد الوزيرُ رئيسُ الرؤساء دارَ المملكة، واجتمع بالسلطان، وخاطبه في معنى أخيه إبراهيم ينَّال، وقال عن الخليفة: قد راسلتُك أيها السلطان عند وقوع الإرجاف عليه بعصيانه عليك، بأن لا تقبلَ فيه قولَ قائل، ولا تعجَلَ عليه، فللناس أغراض يبلغونها بك، ويتشوَّفون بها عندك، وقد قال الله تعالى: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [القصص: ٣٥] وما يبلغني عنه إلا الطاعة الخالصة، والمحبة الصادقة، والموالاة المؤكدة، بحيث إنني قد اشتهيت أن أراه، وقد شوَّقني ما أسمع عنه إلى مشاهدته. فقال السلطان: إذا أمرَ أميرُ المؤمنين سيَّرتُه إلى خدمته. ثم شرع يشكوه فقال: لمَّا سلَّمتُ إليه الحبل وعوَّلتُ عليه عصى عليَّ وجاهرني، فسِرْتُ إليه، فظفِرتُ به، وعملتُ معه الجميل، ولو كان ما ذُكِرَ عنه الآن من العصيان حقًّا لسرتُ إليه بنفسي، وأخذتُه برقبته، وما أخاف إلَّا من شغلي به، فتبْقَون أنتم ها هنا بحيث يتمكَّن العدوُّ من انتهاز الفرصة فيكم. فقال له رئيس الرؤساء: بعد قَصْدِه بابَك، ووَطْئِه بساطَك، وتشرُّفه بالحضرة الإمامية المقدسة ما يكون منه ما يتوزَّع الخاطرُ لأجله، أو يقع الاهتمام بأمره. ثم شكا إليه رئيسُ الرؤساء فسادَ الجند، فقال: الأمر إليك في هذا، افعَلْ ما تراه، وقد كنتُ الساعةَ قبل حضورك تقدَّمت إلى عميد الملك بأن يتقدَّم إلى الحواشي والحُجَّاب ويقول لهم: مَنْ أرجفَ بأنِّي عائدٌ إلى خراسان أدَّبتُه وعذَّبتُه، وقد كنتُ أجوبُ الأرض حتى أصِلَ إلى هذه الرتبة من خدمة الدار العزيزة، وقد بلغتُ منها نهاية الأمنية، ولم يبقَ بخراسان مَنْ أخاف منه على بلادي، كلُّهم لبسوا خِلَعي، ودخلوا تحت طاعتي، ولا بُدَّ لي من نطحةِ الشام بعد تقضِّي الصيف، وحضورِ المهرجان.

ثم خرج رئيس الرؤساء من عنده، واجتمع بإبراهيم ينَّال، وقال له: أمير المؤمنين قد أنِسَ بقربك، وسكن إلى سلامتك، وسُرَّ بما يبلغه من طاعتك. فقام وقبَّلَ الأرض وقال: أنا خادمُ الدار العزيزة، وباذلٌ مهجتي في نصرتها، وحيث ورد كتابُكَ وأمرُكَ إليَّ بالحضور سارعتُ متشرفاً بهذا المحلِّ الشريف، ومتجمِّلاً بهذا الاستدعاء الكريم، وأنا واقفٌ على الأوامر والمراسيم. فشكره الوزير، ودعا له.

وفي هذا الشهر أنفذ أهل شفاثا وقلعة العين التي لمحمود بن الأخرم أمير بني خفاجة ـ وهي معقل الخفاجيين ـ إلى السلطان، فسلَّموها إليه، فأعطاها أنوشروان زوجتَه، فتسلَّمها أصحابُه.

وفيه أُخرِجَ خُمارتاش الحاجب في جماعة من العسكر إلى الأنبار، وباتِكين ويارختِكين الحاجبان إلى الموصل، وسببه أنه ورد الخبر أن البساسيري وقريش بن بدران ومَنْ معهما من الغلمان البغدادية والأكراد، قطعوا الفرات، ومدُّوا أيديَهم في أعمال الجزيرة.

وفيه ورد الخبر بأن الغلمان البغدادية شغبت على البساسيري، وقالوا: قد أقطعت الرَّحبة، وليس لنا ما يقوم بنا. وانفصل عنه جماعة إلى دمشق.

وفيها أتوا نصر بن أبي عمران الداعية، وشكوا إليه، وطلبوا أن يذهبوا إلى مصر، فنهاهم عن مصر، ووقَّع لهم بما سألوا وأرضاهم، وأعادهم إلى البساسيري، فعادوا كارهين له، فقطع عليهم الطريق بنو كلاب، فقاتلوهم، فنُصِرَ الغلمان عليهم، فقتلوا منهم، ونهبوا خيولهم، وجاؤوا إلى حلب وبها أبو علي بن ملهم، فشكوا إليه حالَهم، وعرف منهم أنهم يكرهون العود إلى البساسيري، فارتبطهم عنده، وقرَّر لهم ما يرضيهم، ودخلوا إلى حلب فأقاموا بها.

وفي مستهلِّ ربيع الآخر ورد البساسيري وقريش إلى تل أعفر، وخرج عنها نائب السلطان إلى الموصل، وجاءا فنازلا الموصل، وكان غلمان السلطان يخرجون فيقاتلونهم، واستظهروا على العرب، وبلغ السلطان، فأنفذ إلى الجبال بطلب الحلباشية، وجهَّز إليهم سبع مئة غلام مع الحُجَّاب، وورد بغداد سلطان بن دُبَيس في عسكره نجدةً للسلطان، فتلقَّاه عميد الملك، وقبَّل الأرض بين يدي السلطان.

[وفيها في ربيع الآخرة توفِّي الملك الرحيم بن نوبة في قلعة الريِّ، ودُفِنَ بقيده].

وفي جمادى الأولى برز إبراهيم ينَّال من بغداد متوجهاً إلى الموصل، وكان بقلعتها ابنانجيل الذي خلفه السلطان بقلعة تل أعفر، جاء منهزماً من البساسيري، وكانت كتبه متواترة إلى السلطان تطلب النجدة، وأنهم في ضيق، فأراد السلطان يسير بنفسه، فمنعه الخليفة، وأشار بتسيير إبراهيم ينَّال، وأشار على السلطان بمداراته وإزالة علله، فامتثل

وطيَّبَ قلبه، وخلع عليه خلعةً نفيسةً من ثيابه، وأعطاه مالاً، وبعث إليه الخليفة خِلَعاً وثياباً وفرساً من مراكبه، وراسله بألطف الرسائل، وسار نحو الموصل.

وفي جمادى الآخرة ولَّى الخليفةُ نقابة الطالبيين لأبي عبد الله بن أبي طالب نقيب الكوفة والمظالم والحج، وخلع عليه، ولقَّبه بالمرتضى ذي العِزَّين، وحضر قاضي القضاة أبو عبد الله الدامَغاني والأعيان عند رئيس الرؤساء ببيت النوبة، وخلع عليه فيه، وقرأ رئيس الرؤساء عهده، وخرج القاضي معه والحُجَّاب، وعبر إلى الجانب الغربي إلى الدار التي كان ينزلها المرتضى أبو القاسم الموسوي عند بركة زلزل، فلما كان يوم الأربعاء لخمس بَقِين من جمادى الآخرة عبر الأعيان ليهنِّؤوه، وفيهم أبو منصور بن يوسف، والشريف أبو الحسين بن المهتدي الخطيب، وأبو محمد التميمي، وجماعة، فأخذت عمائمهم في الطريق من قِلَّة الناس ببغداد وكثرة اللصوص، ومضى أبو نصر بن الصباغ إلى الجامع يوم الجمعة، فأُخِذَتْ عمامته، وكان العجم من أصحاب السلطان يفتحون الدكاكين نهاراً ويأخذون الأموال، ولا يتجاسر أحدٌ أن ينطق، وخاف الناس خوفاً عظيماً، وعزم السلطان على نهب الجانب الغربي، وقتل من فيه من كثرة إرجافهم عليه، فمنعه عميد الملك وقال: هذا يُفضي إلى خراب البلد واندراسه.

ولمَّا سار إبراهيم يَنَّال من بغداد إلى واسط أجفل بين يديه أهل تلك البلاد، وكان قد مضى إلى أزبك آل بن موسك، وعاد وهو مريض والعسكر مرضى من الوباء وجماعة المقدَّمين، فأُنزلوا في سفينة إلى بغداد، فلمَّا وصلوا إليها ماتوا، ولحق عميد الملك على خُمارتاش حزنٌ عظيمٌ، وقعد على التراب، وامتنع من الطعام والشراب، وكان يحبُّه ويعتمد عليه، ثم نقله في تابوت إلى خراسان.

وفي يوم الاثنين مستهل رجب برز السلطان خيمة نحو الموصل، فخرج إليه رئيس الرؤساء، وحمل معه خِلْعةً من خِلَع الخليفة وفرساً، وقال: قد رسم أنَّ السلطان يسير يوم الأربعاء عاشر الشهر، فإنه اختبر من طريق النجوم، وكان الخليفةُ قد أشار على السلطان أن لا يخرج بنفسه وقال: أصحابي محصورون بالموصل، وقد قلَّ زادُهم، والبساسيريُّ قريبٌ منهم، وكنتُ قد قلت في أول الأمر: إنني أخرجُ، فمُنِعتُ، فجرى

على عسكري ما جرى، ولا بُدَّ من الخروج، فخرج وطلب من الخليفة مالاً ينفقه في الغلمان، فبعث إليه بمال سراً لا يدري ما مَبْلَغُه، ولمَّا خرج السلطان رأى في عسكره قلَّةً، فشقَّ عليه، وقال لعميد الملك: هلَّا أخبرتني لأتوقف حتى تجتمع العساكر. وكان عدة من معه نحوٌ من ألفي غلام.

وفي رابع رجب هرب جماعةٌ من أصحاب السلطان من قلعة الموصل، فسَلِمَ البعضُ، وغَرِقَ البعض، وبقي منهم جماعةٌ في القلعة، وكانت العامة عليهم تقاتل، ثم جاء البساسيري فنزل دار الإمارة، وكان يقيم فيها نهاره، ويخرج منها إلى عسكره ليلاً، ووصل أصحاب السلطان من الجبل، وجاءته العساكر، وسار يوم الجمعة لأربعٍ بَقِينَ من رجب، ولمَّا قَرُبَ من الموصل هرب البساسيريُّ وقريش بن بدران وأهل الموصل، فهدم السلطان قلعة الموصل، ونزل العسكر في دور أهل الموصل، ولم يكن بقي منهم بها أحد، وكان شتاء، فنقض العسكر أخشابها وأوقدوها، وخرب أكثرها، وإنما هرب أهل البلد لأنهم قاتلوا أصحاب السلطان الذين كانوا في القلعة، ولم يَطُلْ مقامُ السلطان بها، وسار إلى نَصِيبين، فلمَّا قَرُبَ منها ولم يَبْقَ بينها وبينه إلا ليلة واحدة خرج إليه شيوخها، وبذلوا عن البلد ثلاثين ألف دينار تُدفع إلى العسكر، فالتمس منهم مئة ألف دينار، وقال: ما يكفي العسكر أقلُّ منها. وبات أهل البلد على أسوأ حال، فأصبحوا فلم يروا للسلطان والعساكر أثراً، وذلك يوم الأربعاء ثالث عشر رمضان، والسبب فيه أنَّ إبراهيم يَنَّال استشعر من السلطان ومازال إبراهيم عنه نافراً، وقيل: إنه كان يكاتب البساسيري باطناً، وأشار عليه البساسيري بالعصيان لأخيه، وأطمعه أن ينفرد بالملك ويساعده على ذلك، وكان رئيس الرؤساء قد ظفر بكتاب المصري والبساسيري إلى إبراهيم يَنَّال بذلك، فأخذ الوزير الكتب من الجاسوس وأطلقه، ولم يُسِىءْ إليه ليتألَّف قلب إبراهيم، فعاد فِعْلُه بالوبال وسوء الحال، فإن الجاسوس مضى من فوره إلى إبراهيم يَنَّال، والتقاه في تلك الليلة وأخبره، فانزعج وسار في الليل في قطعة عظيمة من الجيش إلى هَمَذان، ولم يشعر السلطان لأنه كان بعيداً عنه، ولمَّا علم سار فعدا خلفه خوفاً أن يسبقه إلى هَمَذان وبها حلل التركمان فيملكها، ويأخذ من هَمَذان ما بها من خزائن السلطان وأمواله وذخائره وسلاحه، وتقدَّم إلى خاتون وعميد

الملك وأنوشروان بن خاتون وجميع الحاشية حتى طبيبه ومنجمه الذين لم يخلوا قط من صحبته بالانحدار سرعة إلى بغداد، ليمضي هو جريدة بنفسه خلف إبراهيم، ثم يكاتبهم من هناك بما تقتضيه الحال، فانحدروا مُجِدِّين، فدخلوا بغداد يوم الاثنين رابع شوال، وأمَّا السلطان فإنه وصل إلى هَمَذان ليلة الخميس الحادي والعشرين منه، ثم وصل إبراهيم يَنَّال بعده إلى حلل التركمان، فحلَّفهم واستوثق منهم أن لا يصالح أخاه، ولا يُكلِّفهم المسير إلى العراق من بلادهم ولا إلى غيرها، ولا يستوزر وزيراً إلا برأيهم، فحلف لهم، وتحصَّن السلطان بهَمَذان، وقاتل أهلُها بين يديه، ووردت كتبه إلى عميد الملك وخاتون بالإسراع إليه والعسكر الذين معهم ليتقوَّى به، فعزمت خاتون على المسير، فمنعها الخليفة خوفاً من انصراف الجند وخلوِّ البلد، وقال لها عميد الملك: مَنْ يوصلنا إلى هَمَذان والعساكر مُحيطةٌ بها، ومتى ظفر بنا إبراهيم كان وهناً عليكِ وعلى السلطان؟! ودفعها رئيس الرؤساء عن ذلك، وشرع عميد الملك باطناً في ترتيب أنوشروان ابنها من خُوارَزم شاه في الإمارة، وطالبه العسكر بالمال، فأنفق فيه عميد الملك قطعةً من ماله ومال خاتون ومال أنوشروان، وساعدهم الخليفة بالغِلال، ومن الناس أيضاً، وأعلم عميد الملك لرؤساء الترك بما عزم عليه، وأطلع ابنانجيل وعمر على شيء منه، فلم يَرَيا أنوشروان أهلاً، فنقضا عليه ما دبَّره، وبلغ عميد الملك ذلك، فأحفظه، فلمَّا كان يوم السبت الخامس والعشرين من شوال حضروا في دار المملكة، فقال عميد الملك لعمر: ما تدع الفساد على السلطان، ولا تصفي نيَّتك له، وقد بلغني أنك تفسد العسكر لإبراهيم، وتحملهم على مفارقة باب الخليفة، ونحن بإزاء هذا العدو ـ يعني البساسيري ـ فقال له عمر: أنت تعلم من هو ذا يسعى في الفساد ـ يشير إليه ـ ولكن قد كرهتَ كوني معك، وأنا ألحقُ بالسلطان، وأدَعُكَ، فنفر من ذلك، ونهض عازماً على القبض عليه، وأحسَّ عمرُ، فخرج وجرَّد سيفه، وركب فرسه، ومضى إلى داره، واعترضه جماعة من أصحاب عميد الملك، فلم يقدروا عليه، واتَّبعه ابنانجيل مائناً لعميد الملك، خائفاً منه، ووصل عمر من ساعته في غلمانه وخاصَّته بالأسلحة والسيوف المسلَّلة إلى الجبل، وجاءت رسالة خاتون إلى رئيس الرؤساء بإصلاح ما بين ابنانجيل وبين عميد الملك؛ لئلَّا يلحق بعمر فيتضاعف

الضرر، فأحضره رئيسُ الرؤساء، واستحلفه على الطاعة للخليفة والسلطان وعميد الملك، وأخرج له من حضرة الخليفة دست ثياب تشريفاً له وتطييباً لقلبه، فخرج من دار رئيس الرؤساء وقت العتمة، فسار متبعاً لعمر من غير التفات إلى ما حلف عليه في الديوان، ودخل عميد العراق إلى بغداد لمَّا مضى السلطان إلى الجبل واختلَّت الأمور عليه، وكان مقيماً بواسط لجباية الأموال، فأصعد إلى بغداد، ودخلها في شوال.

وفي ليلة السبت ثامن شوال نقب جامع المنصور، وأخذ منه المطرز الذي ينصب عليه المنبر والستر والسجادة وثياب المكبرين.

وفي ليلة الثلاثاء ثامن عشره كانت بين المغرب والعشاء زلزلةٌ عظيمةٌ، ولحق الناس منها خيفةٌ شديدة، ووصلت الأخبار بأنها اتصلت من هَمَذان إلى بغداد وواسط وسَقي الفرات وعانة وتكريت، وكان ببغداد رَحًى تدور فبطلت، وبعد هذه الزلزلة بشهر أخرج القائم من داره وجرى ما جرى، ولمَّا خرج ابنانجيل وعمر اتبعهما جميع من كان ببغداد من التركمان والأتراك، ولم يرضَ أحدٌ منهم بتأمير أنوشروان عليه، وقد كان عميد الملك خاطب الخليفة على أنوشروان وإظهاره في الملك، فقال الخليفة: هذا أمرٌ ينبغي [أن] يُستر، فقد تحدَّث الناس[1] بوفاة ركن الدين، فإن فعلنا ذلك صحَّ ما أرجفوا به، وطمع فينا العدو، والمصلحة الآن تدبير العساكر؛ لئلا يخلو البلد منهم، وهذا الأمر لا يفوت. وبعث رئيس الرؤساء إلى أبي الأغر دُبيس يستحِثُّه في القدوم إلى بغداد خوفاً من البساسيري، فقدم يوم الاثنين ثاني ذي القعدة في مئة فارس، فنزل النجميَّ مقابل دار الخليفة، واستأذن في ضرب الطبل على باب خيمته في أوقات الصلاة، فأذن له في بعضها، فلمَّا كان يوم الأربعاء إذا بعميد الملك وأنوشروان قد عبرا دجلة وهجما على دُبيس الخيمة في مئة غلام، فاستشعر وظنَّ السوء، فخرج إليهما وعرَّفاه أنهما هربا من خاتون، وأنها أرادت القبض عليهما، فضرب لهما خيمةً وأنزلهما فيها. وقيل: إن خاتون كانت على اللحاق بالسلطان خوفاً من أن ينحدر البساسيري إلى بغداد، وأيضاً فبلغها أن السلطان قد دخل ببنت الملك أبي كاليجار بن بويه، وأنه قد مال إليها، وخافت أيضاً أن يعلم السلطان بما عزم عليه أنوشروان وعميد

(١) في (ف): جرت الأخبار.

الملك، فربما أنه يحيد عن رأيهما، فعزمت على القبض عليهما. وقيل: إن كتاب السلطان ورد عليها بالقبض عليهما؛ لأن الخبر وصله بما شرعوا فيه، فأطلعَتْهُما على الكتاب، وأشارت عليهما بالانصراف، فلمَّا عبرا دجلة ونهبَتْ دورَهما، واستدعَتْ الحلباشية والتركمان وحاشية السلطان، وأخبرتهم بذلك، وأطلقت لسانها في عميد الملك وأنوشروان، وأنهما منعاها من اللحاق بالسلطان لسوء نيتهما، وأظهرت الندم على إفلاتها لهم[1]، وتقدَّمت إلى الجماعة بالمسير، ورحلت بكرة يوم الأربعاء خامس ذي القعدة، فبعث إليها الخليفة بالتوقف، فزبرت الرسول وسارت، وخاف الحريم من عبث العرقية يعني حريم دار الخلافة، فرمى الناس أقمشتهم في الآبار، وأقام الوزير على أبواب الدروب من يحفظها وباتوا على وجل، وسار الغُزُّ مع خاتون ونهب من تخلَّف منهم دارَ المملكة وما فيها من السلاح والرجال، وكان شيئاً كثيراً، وعبر عميد الملك من خيم ابن مَزْيد وقت العصر إلى بيت النُّوبة، واجتمع رئيس الرؤساء، واستقرَّ الرأي مع الخليفة عبور ابن مَزْيد إلى الجانب الشرقي لتهمتهم إيَّاه بالبساسيري، وجرَتْ بينهم وبينه مراسلاتٌ إلى أن عبر يوم الخميس سادس ذي القعدة، وتواترت الأخبار بانحدار البساسيري وقريش ونزولهما على هِيت منتهزين الفرصة في بغداد، ولم يبقَ مع عميد الملك غير غلمانه، فانحدر إلى دير العاقول يوم الخميس طالباً خُوزستان، فلقي في طريقه أبا كاليجار هزارسب، وكان قد استُدعِيَ إلى بغداد، فعرَّفه مسير خاتون بالعساكر، فرجع معه ومضيا جميعاً إلى الأهواز، وأما أنوشروان فسار لاحقاً بوالدته، وكثُرت الأخبار بقرب البساسيري، وضعُفَتْ نفس الخليفة ووزيرِه، ورجع الناس وخصوصاً حاشيةُ الخليفة وخدمُه، وقال الخليفة: مَنْ أراد الانصراف فلينصرِفْ فإني خارج من البلد. فأخرج الناسُ أموالَهم وأولادَهم إلى شاطىء دجلة، وضجَّ النساء والأطفال، وأنزل الحاشيةُ والعجمُ أموالَهم إلى السفن. وفي وقت هذه الثورة صاح على دار الخليفة نحو عشر بومات صياحاً مزعجاً، وكرَّرت تكريراً موحشاً. [قلت: وأهل العراق يتطيَّرون من صياح البوم ويتشاءمون بهنَّ، وليس في صياحهنَّ بؤسٌ ولا شؤم، وقد يوافق صياحهنَّ جريان القدر في بعض الصور، وفي الخبر الذي اشتهر: «لا

(١) في (ف): منها، والمثبت من (ف).

عدوى ولا طِيرة ولا هامة ولا صفر»[(١)]. ولمَّا تحقَّق أبو الأغر دُبيس وصولَ البساسيري قال لرئيس الرؤساء: مَنْ بقي من ها هنا من هؤلاء العجم يدافع، والرأي عندي خروجي وخروجك عن البلد وانحداركما ومَنْ يتعلَّق بكما في دجلة إلى البلاد السفلية، بحيث تأمنا عدوَّكما، ويجتمع هزارسب معي في خدمتكما، ويجتمع إليكما مَنْ نقوى به. فوافق على هذا الرأي، وخاطب الخليفةَ مراتٍ، فأجابه إليه، ثم صعب عليه مفارقةُ داره وماله، وسمع من والدته ما قوَّى قلبه وعزمه في المقام، فاجتهد به رئيس الرؤساء في الانحدار، فأبى، فقال دُبيس: قد محَّصتُ الرأي، وأنا أتقدم إلى ديالى، فإن قبلتُم انحدرتُ في خدمتكم، وإن تكن الأخرى فالله يقيكم ويدافع عنكم وانصرف إلى ديالى، وأقام متوقعاً خروج الخليفة، ولم يُقبل، وانحدر معه قوم من الحواشي، وخاف الغُزُّ من غدره فتوقَّفوا، وأقام الخليفة على كُرْهٍ وضرورةٍ لا عن رأيٍ وإرادة، وجمع إليه من بقي، وأمر بإصعاد العجم من السفن التي كانوا يبحرون فيها، وخرج عميد العراق أبو نصر أحمد المستوفي لينحدر، فخرج الخليفة بنفسه إليه فردَّه، واجتمع مع الخليفة نحو مئة فارس وألف راجل، وأمر أهلَ الجانب الغربي أن يعبروا إلى الجانب الشرقي، وأمر الزُّهيري وابن اليدن الحنان وابن المُذْهِب ـ وهم رؤوس الفتن ـ أن يعبروا إلى الجانب الشرقي إلى الحريم، ومضى رئيس الرؤساء وعميد العراق إلى دار المملكة، وأخذ من الساج الذي فيها ما صلح، وضربا الباقي بالنار، واحترق بيتٌ كبير يقال له: السُّبُكْتِكيني، بناه سُبُكْتِكين حاجب مُعِزِّ الدولة، كان فيه السلاح، ولمَّا بنى عضد الدولة دار المملكة وغيرها لم يتعرَّض لهذا البيت، وقال: هذا فخر بني بويه، يشاهده الناس في دار المملكة. ودخل يوم الجمعة سابع ذي القعدة أو سادس عشره غلمان من البغدادية الذين مع البساسيري إلى بغداد إلى الجانب الغربي، واجتازوا بالكَرْخ، فوثب إليهم أهل الكَرْخ، وخلفوا دوابهم، ودَعَوا لهم وللبساسيري ولصاحب مصر، وسبوا رئيس الرؤساء، وكان أبو طالب كامرو بن الملك أبي كاليجار محبوساً في دارٍ في الجانب الغربي، فأخرجوه وشدُّوا له علماً أحمر، وأقاموه بإزاء دار المملكة، وبعثوا إلى البساسيري يخبرونه بدخولهم بغداد وما فعلوا،

(١) أخرجه البخاري (٥٧٠٧). ومسلم (٢٢٢٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ويستحثونه على لحاقهم، وأقاموا مع كامرو إلى وقت المساء، ثم حمله إلى قرية عَقْرَقُوف[١]، فباتوا بها، ووافاهم البساسيري، وقيل: لم يُصلِّ الناسُ الجمعة بجامع المنصور، وإنما صلُّوا الظهر بغير خطبة، ونزل البساسيري يوم السبت بعَقْرَقُوف، ولقيه كامرو فلم يَرَ عنده ما قدَّره، وجهده بما يكره، وحصل في جملته غيرَ مُهتَمٍّ بأمره، ولا مُراعٍ لحقِّه، فلما كان يوم الأحد ثامن ذي القعدة دخل بغداد، فخرج إليه أهل الكَرْخ، وتضرَّعوا في أن يجتاز عندهم، فعدلَ معهم، ودخل الكَرْخ، فنثروا عليه الدنانير والدراهم، وعليه جبة عتابي، وعمامة خَزٍّ، وكان دائماً ينتخب الملابس الفاخرة، وعن يمينه أبو الحسن بن عبد الرحيم، وعن يساره من الغلمان البغدادية العددُ القليلُ، وعلى رأسه نحو من عشرين قصبة من القنا، منها عشرة ملبَّسة بالفضة مشدودة، عليها تسعة مطارد سقلاطون، مكتوب عليها بالذهب والفضة: الإمام المستنصر بالله أبو تميم مُعِدُّ أمير المؤمنين، ومنها عشرة ملبَّسة بالحرير الأحمر، على واحدة منها راية بيضاء، منسوجٌ فيها بالذهب اسم المستنصر أيضاً، فنزل بمشرعة الزوايا، ونزل قريش في نحو من مئتي فارس في مشرعة لباب البصرة في بني عقيل، ولمَّا استقرَّ بالقوم المنزل ركب عميد العراق من الجانب الشرقي في العسكر وحواشي الدار والخدم والهاشميين والعلويين والعوام، وقد ألبسهم السلاح، فكانوا عدداً كثيراً، ومعهم فيلٌ صغيرٌ حمله السلطان إلى الخليفة لمَّا زفَّ إليه ابنةَ أخيه، وضربوا الدَّبادب والبوقات، وصاحوا عليهم إلى آخر النهار، ثم انصرفوا ولم يجاوَبوا بكلمة من عسكر البساسيري بكلمة ولا فعل، ونُهِبَتْ دارُ قاضي القضاة أبي عبد الله الدامغاني، وكانت بالجانب الغربي، وتلف أكثرُ السجِلَّات والكتب الحكمية، ونُهِبَتْ دور المتعلقين على الخليفة والعجم، إلا من كان في داره فإنهم لم يتعرضوا له ولا لداره، وأوصى البساسيريُّ الغلمان أن لا ينهبوا ويُحسِنوا العشرة مع الناس، وطرحت النار في باب البصرة، وكان أكثرُ أهلها قد عبروا[٢] إلى دار الخليفة، فنُهِبَتْ وأُحرِقَتْ، واجتهد البساسيري في منع ذلك فلم يقدر؛ لأن أهلَ الكَرْخ أظهروا ما كان في قلوبهم، وخرج مَنْ بقي من أهل باب البصرة

(١) عَقْرَقُوف: قرية من نواحي دجيل، بينها وبين بغداد أربعة فراسخ. معجم البلدان ٤/ ١٣٧ .

(٢) في (ف): دخلوا.

عراةً ومعهم النساء والأطفال، وقعدوا على الطرق والدكاكين، وكان الزمانُ شتاءً، والبرد شديد، فمات أكثرُهم، وأعاد أهل الكَرْخ الأذان بحيَّ على خير العمل، وأظهروا الفرح والسرور والتشفي بإزاء ما قاسوه من الخوف والذُّلِّ، وعملوا راية بيضاء وكتبوا عليها اسم المستنصر، ونصبوها في وسط الكَرْخ، وعقد البساسيري الجسر عند باب الطاق ليضيِّق رجله، وجرى بينه وبين عميد العراق حربٌ على عقده، وجمع إليه البساسيري العوامَّ وأهلَ الكَرْخ، وأطمعهم في نهب دار الخليفة، واجتمع إليه العيَّارون، وكان كلُّ مَنْ عبر إليه إلى الجانب الغربي خلع عليه وزفَّه بالبوقات والدبادب، وخطب بجامع المنصور للمستنصر، وألبس الخطيب والمؤذنين الثياب البيض، وزيد في الأذان: حيَّ على خير العمل، وركب عميد العراق إلى جامع الرُّصافة، وأقام الخطبة للقائم على العادة، ولمَّا تكامل الجسر والقتالُ يُعمَلُ عليه سيَّر جماعةً يوم الاثنين سادس عشر ذي القعدة، فوافاهم عميد العراق عند الزاهر، واقتتلوا، فانهزم عميد العراق ومَنْ كان معه، وقُتِلَ من الدَّيلم نحوٌ من ثلاثين رجلاً، وعبر البساسيري بعسكره، وخرج إليه عميد العراق وبنو هاشم وغيرهم، وقاتلوه من نهر مُعلَّى إلى باب أبْرَز، وكان القتالُ يُعمل كلَّ يوم، وخُطِبَ يومَ الجمعة بجامع الرُّصافة للمستنصر أيضاً، وكان الخطيب في جامع المنصور والرُّصافة يقال له: ابن شعيب الأَرَّجاني، وكان شريراً مبغضاً، وكان البساسيري يعرفه بالشر، فنال من الخليفة ومن رئيس الرؤساء [على المنبرين، وكان عميد العراق ورئيس الرؤساء][1] والخدم والزهيري وابن اليدن وابن المذهب القاص يقفون بباب النُّوبي، ويقاتلون ويجمعون العوامَّ ورئيسُ الرؤساء يحرِّضهم ويقول: اقتلوهم حيث ثقفتموهم، وكان النساء يقاتِلْنَ وبأيديهنَّ الدفوف، وحُفِرَتِ الخنادق والآبار حول دار الخلافة، وخلا جانب الحلبة من المقاتلين، واشتغلوا بحفظ باب النُّوبي، فلما كان يوم الأحد التاسع والعشرين من ذي القعدة قصد البساسيريُّ دارَ الخلافة من ناحية باب النُّوبي، وعرف العوامُّ خلوَّ باب الأزج والحلبة، فجاؤوا إلى ناحية باب الأزج، وهدموا حائطاً، وأحرقوا أماكِنَ، وعلم البساسيري، فساق إليهم، فوجدهم قد اشتغلوا بالنهب من باب الأزج، ولمَّا

(١) هذه الزيادة من (ف).

رآهم أصحابُه ينهبون شرعوا في النهب، فبقي في عسكر قليل، وحمل أصحاب عميد العراق إليه، وقتلوا أحدَ مماليكه، فانصرف وقد غاظه ما جرى، ونادى في أصحابه: من نهبَ حلَّ دمه، وباكر القتال من غدٍ عند الحلبة، وكان عميد العراق واقفاً بباب أبْرَز في أصحابه وهو مستظهرٌ عليهم، ولو قبل رئيس الرؤساء رأيه لطال الأمرُ، ولكنه عدل إلى رأي نفسه، وجاء إلى باب الحلبة فشجَّعه القاضي أبو الفضل الهَمَذاني، وقال: افتَحْ لي الباب لأخرُجَ إلى هذا الكلب وآخذ به برقبته، ولم يكن رئيس الرؤساء يقيم الحرب، ولا له به خبرة، ففتح الباب، فخرج أبو الفضل فيمَنْ يخلف عن عميد العراق من العجم، ومعه الخدم والخواصُّ والهاشميون والعوام إلى الحلبة، وانتشروا فيها، وعميد العراق في باب أبْرَز، ووقف رئيس الرؤساء بالباب يُفرِّق النُّشَّاب، فاستجرَّهم البساسيري إلى آخر الحلبة، ثم أكَبَّ عليهم فانهزموا، وقُتِلَ من الخدم والخواصِّ جماعةٌ، وكذا من الهاشميين، منهم: أبو علي بن أبي تمام نقيب الهاشميين، وجماعةٌ كبيرة، واستأمن بعضُهم، وازدحم في باب الحلبة خلقٌ فمات منهم جماعةٌ، منهم القاضي أبو الفضل الهَمَذاني وجماعةٌ من العوام حتى امتلأ العقد بهم، وصَعِد الناس على القتلى، وازدحموا فوقهم، وهرب رئيس الرؤساء إلى دار الخلافة، ورجع البساسيري إلى معسكره، وعبر العوام وغيرهم من دار الخلافة إلى الجانب الغربي، وأخذوا نساءهم وأموالهم، ونهبوا حريمَ الخلافة، وخرج رئيس الرؤساء إلى باب النُّوبي، واستدعى عميدَ العراق وقال له: احفَظْ باب العامة، وكُنْ على سور دار الخلافة. ودخل إلى القائم وقد أطاف بالقائم خدَمُه وخواصُّه، فقال له: ما الرأيُ يا علي؟ فقال: تحفظ الدار، ويكون القتال على السور، ونسألُ الله حُسنَ المقدور. فقال له بعض الهاشميين: يا رئيس الرؤساء، قامرتَ في الدولة العباسية فقمرتَها، وبينا هم على ذلك إذ سمعوا صراخاً في الدار، فقال: انظروا ما هذا؟ قالوا: العوامُّ والعسكر دخلوا الدار، ونهبوا ديوان الخاص، ودواب الخدم والخواص، وأشاروا على الخليفة بالركوب ليشاهده الناس، فإمَّا يرجعوا، وإمَّا استُذِمَّ قريشٌ، فركب وعليه السواد، وعلى كتفه البردة، وبيده سيفٌ مُجرَّد، وعلى رأسه اللواء[1]، والهاشميون حولَه

(١) في (ف): اللؤلؤ.

والجَواري حاسراتٌ [ناشراتٌ][1] الشعورَ، معهنَّ المصاحف على رؤوس القصب، وبين يديه الخدم بالسيوف المسلَّلة، فوجدوا جماعةً من النَّهابة قد وصلوا باب الفردوس[2]، فقتلوهم ورجع إلى باب العامة يريد عميد العراق، فوجده قد استأمن إلى قريش بن بدران، ورمى أكثرُ أصحابه سلاحهم، واستأمنوا معه، فعاد إلى الحلبة الصغيرة، وعرف أن البساسيري وقريشاً في الحلبة الكبيرة، فصعد إلى منظرة له، واطَّلع رئيس الرؤساء وصاح بقريش: يا علم الدين، أمير المؤمنين يستدنيك. فدنا إلى تحت المنظرة، فقال: قد آتاك الله رتبةً لم ينَلْها أمثالُك، وأحلَّكَ منزلةً لم يُحِلَّها أشكالَك، فإن أمير المؤمنين يستذمُّ منك على نفسه وأهله وماله وأصحابه بذمام الله تعالى وذمام رسوله ﷺ وذمام العرب. فقال قريش: قد أذمَّ الله له. قال: ولي ولمن معه؟ قال: نعم. وخلع قَلنسوةً من تحت عِمامته، وأعطاها ذماماً للخليفة، وأعطى مِخْصَرته لرئيس الرؤساء ذماماً، ففتح الباب، ونزل الخليفة ورئيس الرؤساء إلى قريش، وحصلا معه، فقبَّل قريش الأرضَ دفعاتٍ، وكان ابنُ المسلمة قد تسرَّح من الحائط فنزل، وبلغ البساسيري، فأرسل إليه يقول: أتذمُّ لهما وقد استقرَّ بيني وبينك ما اسْتَحلفتُكَ عليه؟! وكانا عند انحدارهما قد تحالفا أن لا ينفرد أحدهما عن الآخر بشيء، ويكون العراق بينهما نصفين. فقال قريش: ما عدلتَ عن ما استقرَّ بيننا عدول ابن المسلمة ـ يعني رئيس الرؤساء ـ فخُذْه وأنا آخذ الخليفة. فرضي بذلك، وبعث رئيسُ الرؤساء إليه مع منصور بن مَزْيَد، فحين رآه البساسيري قال: مرحباً بمدمِّرِ الدولة، ومُهلِكِ الأمم، ومُخرِّبِ البلاد، ومُبيدِ العباد. فقال له: أيها الأجلُّ، العفو عند المقدرة. فقال: قد قدرتَ فما عفوتَ، وأنتَ تاجرٌ صاحبُ طيلسان، ولم تُبْقِ على الحريم والأطفال والأموال، فكيف أعفو عنك وأنا صاحب سيف، وقد أخذتَ أموالي، وعاقبتَ حرمي، ونفيتَهم إلى البلاد والقلاع، واعتقلتَهم فيها، وقتلتَ أصحابي، ودرسْتَ دوري، وسبيتني وأبعدتني، وفعلتَ تلك الأفاعيل، ولكن هذا من تصوُّرك الفاسد، وعقلك الناقص. واجتمع العامة على ابن المسلمة، ولعنوه وسبُّوه

(١) هذه الزيادة من (ف).

(٢) في (خ): الفراديس، والمثبت من (ف).

وهمُّوا به، فأخذ البساسيري بيده، وسيَّره إلى جنبه؛ خوفاً عليه من العامة، ولم يزَلْ يوبِّخه ويُعنِّفه ـ وهو يعتذر إليه ـ ويستعطفه، وحلَّ الركابية حزامَ البِرْذَون الذي كان تحته ليسقط ويتمكن منه العامة، فسقط، فوقف البساسيري حتى أركبه، ومضى به إلى خيمته، وانتزع أحدُ الأتراك ما كان عليه، وألبسه قميصَ خَزٍّ وعمامةً لطيفةً بيضاءَ، وقيَّده بقيدٍ، ووكَلَ به، وحصل في يده جميعُ مَنْ كان يطلبه، مثل: ابن المردوسي، وأبي عبد الله بن الدامغاني قاضي القضاة، وهبة الله بن المأمون، وأبي علي بن السيرواني، وأبي عبد الله بن عبد الملك، وكان من التجار الكبار، وبينه وبين البساسيري عداوةٌ، وكان قد سكن دار الخليفة خوفاً منه على ماله ونعمته، وظفر بالسيدة خاتون بنت الأمير داود زوجة الخليفة، فأحسن معاملتها، ولم يتعرَّض لها، وسلَّمها إلى أبي عبد الله بن جردة البيع، وأما قريش فحصل في يده الخليفة، وعميد العراق، وأبو منصور بن يوسف وولده، فحُمِلَ الخليفةُ إلى معسكره راكباً، عليه الثياب السُّود، وعلى كتفه البُردةُ، وبيده سيفٌ مسلول، وعلى رأسه اللواء، فمال، فأنزله قريش خيمةً لطيفةً، ومعه من خواصِّ خدمه ريحانُ وموفق وعفيف، ووكل بالخيمة قوماً من أصحابه، ولحق الخليفةَ ذَرَبٌ عظيم، فامتنع من الطعام والشراب، فسأله قريش وألحَّ عليه حتى أكل وشرب، ثم إن قريشاً أذمَّ لأبي عبد الله بن جردة، وكان تاجراً، لم يُدخِلْ نفسَه في غير التجارة، وأخذ أبا منصور بن يوسف وابنيه إلى حُلَّته وأكرمَه، وأصلح حالَه مع البساسيري، وكان ابن جردة قد ضمن لقريش عشرةَ آلاف دينار إن حمى له داره وما فيها من أموال التجارة، فحماها، وعبر العوامُّ من الكَرْخ وغيرِه يوم الثلاثاء، فأحرقوا رباط أبي سعيد الصوفي بباب المدرسة النظامية، ثم صعدوا إلى دار الخليفة وفتحوا أبوابها ونهبوها، وأُخذ منها من الأموال والجواهر والثياب والأواني والياقوت والمصاغ وجميع الأشياء ما لا تُحصر قيمتُه، واستغنى أهلُ الكَرْخ والعرب والغلمان، فلما كان يوم الأربعاء رفع البساسيريُّ النَّهبَ عن دار الخليفة، واستُخرجَتِ الأموالُ منها، واقتسمها البساسيريُّ وقريشٌ على ما اتَّفقا عليه، وقُتِلَ ابنُ المُذْهِب القاص بباب النُّوبي، وأفلت الزُّهيري وابنُ اليدن الحيَّان، وكان هؤلاء الثلاثة القائمين القاعدين المتهدِّدين والمتوعِّدين، وكان في قلوب الناس منهم ما فيها، وعبر

البساسيريُّ بابن المسلمة إلى حريم ابن طاهر، واعتقله فيه، وثقَّله بالحديد، وضربه بيده ضرباً مُبرِّحاً حتى انتفخت قدماه، فَفُكَّ قيدُه حتى سكنت، ثم أُعيد القيد، واعتُقل أيضاً القاضي ومَنْ سَمَّينا، وواصل العقوبة عليهم، وأقام بالحريم، وجعله داره، وشدَّ الفِيلَة على بابه، وطلب الخليفةَ من قريش فلم يفعل، فاتَّفقا على أن أيديهما متساوية في حفظه، وأن لا يكون في يد أحدهما إلى أن يتقرَّر لهما عزمٌ في بابه، وأن يبعثا به إلى مهارش صاحب الحديثة، وأن يكون معتقلاً عنده، وعرف الخليفة ذلك، فخاف أن تكون مكيدة، فراسل قريشاً في المجيء إليه، فامتنع، فقام الخليفة ومشى إلى خيمة قريش، ودخل عليه، وعلق بذيله، وقال: قد عرفتَ ما استقرَّ من إبعادي عنك، وإخراجي من يدك[1]، وما سلمتُ نفسي إليك، إلَّا لمَّا أعطيتني ذمامك الذي يلزمك الوفاء به، وقد دخلتُ عليك بذمام آخر، فاللهَ اللهَ في نفسي، فإنك إن أسلمتني أهلكتني وضيَّعتني، وما ذاك معروف في العرب. فقال له: ما ينالُكَ سوءٌ، ولا يلحقُكَ ضيمٌ، غير أن هذه الخيمة ليست لك بدار مقام، وأبو الحارث لا يُؤثِر مقامك معه في هذا البلد، وقد جرى ما جرى في أمرك، وأنا أنقلك إلى الحديثة وأُسلِّمك إلى ابن عمي مهارش، وفيه دين وتألُّه، فلا تخَفْ، واسكُنْ إلى مراعاتي لك، وعُدْ إلى مكانك. فلمَّا يئس منه قام عنه وهو يقول: لله أمرٌ هو بالِغُه. واسترجع، وعبر قريش ليلة الأربعاء تاسع ذي الحجة إلى الجانب الغربي، فضرب خيمةً بقرب جامع المنصور، وحُمِلَ الخليفةُ إلى المشهد بمقابر قريش، وقيل له: تبات الليلة فيه. فامتنع وقال: هؤلاء العلويُّون الذين به أعدائي ويشنؤوني، وربما جرى منهم قولٌ قبيح. فلم يلتفت إليه، وأُلزم الدخول، وبات في بعض البيوت، وكان القصد في إدخاله المشهد لما جرى على المشهد من الحريق والهوان، وفِعْلُ الزُّهيري وابن اليدن إنما كان عن أمره وإيثاره، فأرادوا الموافقة له على ذلك، وأنه عوقب بدخوله إليه، فأصبح أصحاب البساسيري وأصحاب قريش فتسلموه وأقعدوه في هودج على جمل وحده، وساروا به إلى الحديثة، فلمَّا بلغ الأنبار شكا وصولَ البرد إلى جسمه، وطلب شيئاً يلبسه، فلم يجد، وعرف شيخ من مشايخ الأنبار ـ يقال له: ابن مهدويه ـ ذلك، فأنفذ إليه جُبَّةَ بُرْدٍ

(١) في (خ): وإخراجي عنك، والمثبت من (ف).

فيها قطنٌ، وبقياراً[١] ولحافاً، وكتب الخليفة رقعةً من هناك إلى بغداد يتلطَّف فيها بالبساسيري وقريش، ويسألهما إعادتَه إلى بغداد، وإحسانَ العشرة، وحلف بالأيمان المؤكِّدة على براءة ساحته من جميع ما نُسِب إليه، فلم يقع التفاتٌ إليها، ولا رَدَّ جواباً عنها، وركب البساسيريُّ يوم الخميس العاشر من ذي الحجة إلى المُصلَّى في الجانب الشرقي، وعلى رأسه الألوية المضربة، وأكثرُ مَنْ في موكبه من العجم، وكانوا سبع مئة، فدنا منهم ولم يتعرَّضْ لهم، وعبر في طيار الخليفة، وعلى الطيار أعلام المصريين، فصلَّى العيد ونحن بين يديه، وأبو منصور بن بكران حاجب الخليفة على رأسه في النحر، وعليه ثياب بياض، وضرب البساسيري دنانير سمَّاها المستنصرية، وكان على جانبه: لا إله إلا الله، محمد رسول الله، عليٌّ وليُّ الله. وعلى الجانب الآخر: عبد الله، ووليُّه الإمام المستنصر بالله أبو تميم معد أمير المؤمنين، وأما دُبَيس فإنه كان مقيماً بديالى، ولمَّا بلغه ما جرى رحلَ منها، ودخل بغداد يوم السبت الثاني عشر من ذي الحجة، والتقاه البساسيري وقريش، وفي جملتهم أبو عبد الله المردوسي وجماعة من الحاشية؛ طمعاً أن يُصلحَ حالَهم مع البساسيري، وضرب خيمةً على الصراة، وكان البساسيريُّ يقبض في الليل على جماعةٍ ويُفرِّقهم، وقدم عليه مَنْ كان بواسط من الغلمان والعجم، فاستخدمهم وطيَّب قلوبهم، وأقفر حريم دار الخلافة، ولم يبقَ فيه إلا عددٌ يسير، وخربتِ الدُّور والمساكن والأسواق، وكان بتكريت أصحابُ السلطان طُغْرُلْبَك، رتبهم عند عوده من الموصل، فندب البساسيريُّ رجلاً ـ يقال له: حيدر ـ من العجم، كان قد خدم البساسيريَّ، وقال: تمضي مع قريش لحصار تكريت.

وفي ذي الحجة غرَّق البساسيريُّ قوماً من العجم همُّوا بالفتك به، وغرَّق معهم جماعةً من العيَّارين ظفر بهم، فيهم الزُّهيري، وكان الزُّهيري لمَّا أُنزل في السفينة ليُغرَّق سأل بعض الملَّاحين ـ وكان من أهل السنة ـ أن يَحُلَّ كِتافَه[٢] ففعل، وسبح،

(١) بقيار: كلمة فارسية، تعني العمامة الكبيرة التي يعتمرها الوزراء والقضاة والكُتَّاب. تكملة المعاجم لدروزي ١/ ٤٠٧.

(٢) الكِتاف: ما شُدَّ به من حبل ونحوه. المعجم الوسيط (كتف).

وانحدر إلى مشرعة القصب، وصعد إلى زورق، فاستكَنَّ فيه من البرد، وأنكره ملَّاحوه، فضمن لهم خمسة دنانير، [على أن يحملوه إلى مربعة القطانين، فحملوه، فدخل دار العُكْبَري معلِّم أولاد ابن المسلمة، وأخذ من أحد أقاربه خمسة دنانير] فدفعها إليهم، وخاف العسكر أن يشيع ذلك فيُغَرِّمَه البساسيري عوضه، فبعث إلى البساسيري وأخبره، فأخذ الزُّهيري فقتله، وطُرِح في دجلة، وأمَّا ابن اليدن فإنه هرب إلى النهروان، فبعث به ناظر النهروان إلى البساسيري، فجاء به فارسان إلى الزاهر ليلاً، فناما، وهرب في الليل، وسبح[1] إلى باب البصرة، واختبأ عند امرأةٍ فسَلِم.

وفي يوم الاثنين لليلتين بقِيتا من ذي الحجة قُتل رئيس الرؤساء، وسنذكره إن شاء الله تعالى.

وفي هذا اليوم ورد ركابيٌّ إلى بغداد ومعه كتابٌ إلى دور أحد حُجَّاب السلطان يخبر فيه أن السلطان كان محاصراً بهَمَذان، وورد الخبر إلى أخيه إبراهيم يَنَّال أن زوجة السلطان واصلةٌ بالعساكر والخزائن، فحرص على أخذها، وبعث بقطعة كبيرة من العسكر وراءها، وتبعها أكثر التركمان طمعاً في نهب ما معها، ففلَّ عسكر إبراهيم يَنَّال منهزماً، وسار السلطان إلى الريِّ، ولحقت به خاتون، وفاتت التركمان، وعادوا فوجدوا أموالهم قد نُهبت، ووصلت خاتون بالسلطان وسلمت، وكان ابنُها أنوشروان معها مقيَّداً، وقد كان لحقها بحلوان، فقيَّدَتْه واستصحبَتْه معها، فلمَّا رآه السلطان على تلك الصورة رَقَّ له، وفَكَّ قيدَه، وأفرج عنه. وكان البساسيريُّ لمَّا دخل بغداد أسر يارَخْتِكين حاجب السلطان، وكانت زوجتُه مع خاتون، فسألت السلطان أن يفدي زوجَها بنساء البساسيري وأولادَه، فأجابها، وبعث كتاباً إلى بدر بن المهلهل الكردي ليتسلَّم يارَخْتِكين، ويُسَلِّمَ أولاد البساسيري.

وفيه أفرج البساسيريُّ عن قاضي القضاة أبي عبد الله الدامغاني بعد أن قرَّر عليه ثلاثة آلاف دينار، وضمنه حموه ابن السِّمناني عليها، وأدَّى سبع مئة دينار، وسكت البساسيريُّ عن الباقي، ووصل الخليفة إلى الحديثة، والتقاه مهارش البدري، وكان حسنَ الطريقة، يخدم الخليفة بنفسه.

---

(١) في (خ): وسلم، والمثبت من (ف).

وفيها قدم الحسن بن الحسين[١] بن حمدان ـ الملقب بناصر الدولة ذي المجدين ـ من مصر أميراً على دمشق، فأقام بها والياً إلى سنة اثنتين وخمسين وأربع مئة، وندب إلى حلب لقتال بني كلاب، فتوجَّه إليهم، وجرت له معهم وقعات، منها وقعة الفنيدق، فكُسِرَ ابنُ حمدان كسرةً عظيمةً قُتِلَ أكثرُ عسكره، وأُسِرَ الباقون، ومضى إلى مصر جريحاً. وقيل: كانت في شعبان.

وقال الرئيس أبو يعلى حمزة بن أسد بن علي التميمي: وفي سنة خمسين وأربع مئة وصل الأمير ناصر الدولة أبو محمد الحسن بن الحسين بن حمدان إلى دمشق والياً عليها دفعةً ثانيةً بعد أن ولي[٢] يوم الاثنين النصف من رجب، فأقام يجمع أموالها، ويسوس أحوالها، إلى أن ورد عليه الأمر من مصر بالمسير إلى حلب، فتوجَّه إليها في ربيع الأول سنة اثنتين وخمسين، واتفقت الوقعة المشهورة عند الفنيدق بظاهر حلب يوم الاثنين مستهلَّ شعبان، فانهزم ناصر الدولة مفلولاً جريحاً، واستولت العرب على ما كان معه. قال المصنف رحمه الله: ومعنى قوله: ورد دمشق دفعة ثانية؛ أن ناصر الدولة كان قد ولي دمشق سنة ثلاث وثلاثين بعد أمير الجيوش أنوشْتِكين، وورد في صحبة ناصر الدولة إلى دمشق الشريف فخر الدولة أبو يعلى حمزة بن الحسن بن العباس بن الحسن بن الحسين أبي الحسن نقيب الطالبيين، فأقام ناصر الدولة إلى سنة أربعين، فعُزِلَ في رجب، وحُمِلَ مقبوضاً عليه إلى مصر.

[وفيها] تُوفِّي

داود جُغْري بك[٣]

أخو السلطان طُغْرُلْبَك، وهو الأكبر، ولم يقدم بغداد، وكان مقيماً بخراسان بإزاء أولاد محمود بن سُبُكْتِكين وداود حمو القائم، وكان عاقلاً شجاعاً مدبِّراً حليماً جواداً، رضي بخراسان، وكانت وفاته ببَلْخ، ومضى ولداه ياقوتي وقاوَرْت بك من

(١) في الأصلين (خ) و(ف): الحسين بن الحسن، والصواب: الحسن بن الحسين، كما سيأتي قريباً، وكما في معظم المصادر.

(٢) في (ف): بعد أولى.

(٣) ما بين حاصرتين من (ف).

حضرة السلطان؛ جهَّزهما إلى أخيهما المتملِّك الأمر بعد أبيهما، واسمه أَلْب أرسلان، وقرَّر[١] السلطان أمورهم، وكان بأصبهان، وقد عزم على قصد العراق.

[وفيها تُوفِّي]

طاهر بن عبد الله بن طاهر[٢]

أبو الطيب، الطبري، القاضي، الشافعي، ولد سنة ثمان وأربعين وثلاث مئة بآمُل، وتفقَّه بخراسان والعراق، وابتدأ بدرس الفقه والعلم وله أربعة عشر سنة، فلم يُخِلَّ به يوماً واحداً حتى مات، وولي القضاء بربع الكَرْخ [بعد موت الصَّيمري. وذكره أبو إسحاق الشيرازي في «طبقات الفقهاء»[٣] وأثنى عليه، وقال]: وكان حسن الخُلق، دفع إلى خفَّافٍ خُفّاً ليصلحه، فكان يمرُّ عليه فيتقاضاه، فإذا رآه الخفَّاف أخذ الخُفَّ وغمسه في الماء وقال: الساعةَ أُصلحه. فلمَّا طال عليه ذلك مرَّ به يوماً، فأخذ الخُفَّ وغمسه في الماء على العادة، فقال له [أبو الطيب]: يا هذا، إنما دفعتُه إليك لتُصلِحه لا لتُعلِّمه السباحة.

[قال الخطيب]: وتُوفِّي يوم السبت لعشر بَقِين من ربيع الأول، وصلَّى [عليه] أبو الحسين بن المهتدي بجامع المنصور، [وحضرتُ الصلاة عليه]، ودفن بباب حرب، وقد بلغ [من السنِّ] مئة سنة وستين سنة، وهو صحيح العقل، ثابت الفهم، سليم الأعضاء والسمع والبصر، على رسمه في الجدال والنظر يقضي، ويفتي إلى حين وفاته، وكان يقول: رأيت النبيَّ ﷺ في المنام، فقال لي: يا فقيه. وكان يفرح بذلك، ويقول: سمَّاني رسول الله ﷺ الفقيه.

وقال الخطيب: أنشدني أبو الطيب لنفسه: [من البسيط]

ما زلتُ أطلبُ علمَ الفقهِ مُصطبراً ... على الشدائدِ حتى أُعقَبَ الظَّفَرا
فكان ما كان من درسٍ ومن سهرٍ ... في عُظْمِ ما نِلْتُ في عُقباهُ مُغتَفَرا

---

(١) في (خ): وقرأ، والمثبت من (ف).

(٢) تاريخ بغداد ٩/ ٣٥٨-٣٦٠، والمنتظم ١٦/ ٣٩-٤٠، وصفة الصفوة ٢/ ٤٩٢-٤٩٤. وينظر السير ٧/ ٦٦٨.

(٣) لم أقف على الكلام الآتي في طبقات الفقهاء، وإنما نقله المصنف عن جده من المنتظم، عن أبي إسحاق الشيرازي، والله أعلم.

حفظتُ مأثورَهُ حفظاً وثِقْتُ بهِ ... وما يُقاسُ على المأثورِ مُعتَبَرا
صنَّفتُ في كلِّ نوعٍ من مسائلِهِ ... غرائبَ الكُتْبِ مبسوطاً ومختصَرا
إذا انتضيتُ بياني عن غوامضِهِ ... حَسَرتُ عنها قناعَ اللَّبْسِ فانحَسرا
وإنْ تحرَّيتُ طُرْقَ الحقِّ مجتهداً ... وصلتُ منها إلى ما أعجزَ الفِكَرا
وكنتُ ذا ثروةٍ لمَّا عُنيتُ بهِ ... فلم أدَعْ ظاهراً منها ومُدَّخَرا
أقولُ بالأثرِ المرويِّ متَّبِعاً ... وبالقياسِ إذا لم أعرفِ الأثَرا
وما أُبالي إذا ما العلمُ صاحبَني ... ثم التقى فيه أنْ لا أصحبَ البَشَرا
ثَنَتْ عناني عنه هِمَّةٌ طمِحَتْ ... إلى الهوى فاستطابَتْ عندهُ الصَّبرا
إذا أضقتُ سألتُ اللهَ مقتنِعاً ... كفايتي فأطابَ الوِرْدَ والصَّدَرا

وقال أبو الوفاء علي بن عقيل الحنبلي: حكى لي بعض أهل العلم أن أبا الطيب الطبري صعد من سُمَّارية وقد تمَّ له عَشر المئة، فقفز منها إلى الشطِّ أمداً بعيداً، فقال له بعض مَنْ حَضَر: يا سيدنا، لا تفعَلْ هذا، فإن أعضاءك تضعف عنه، وربما أورثَتْ هذه الطفرةُ فتقاً. فقال له: يا هذا، إن هذه أعضاءُ حفظناها من معاصي الله في الصِّغَر، فحفِظَها علينا في الكِبَر.

عبد الله بن علي بن عياض[١]

أبو محمد، الصُّوري، ويُلقَّب بعين الدولة، كان جليلاً نبيلاً، ولي القضاء بصور، وسمع الكثير، وخرَّج له الخطيب فوائد في أربعة أجزاء، وقرأها عليه بصور، وكانت وفاته فجأةً في الزِّيْب قريةٍ بين عكا وصور، في شوال، وكان فاضلاً صدوقاً ثقةً. ويقال: إن الخطيب قطعه من تصانيفه وادَّعاها لنفسه.

علي بن الحسن[٢]

ابن أحمد بن محمد بن عمر بن الحسن بن عبيد بن عمرو بن خالد بن الرُّفَيل، أبو القاسم، الوزير، [ابن المُسْلِمَة][٣]، والرُّفَيل من أولاد كسرى أبرويز، أسلم في

(١) تاريخ دمشق ٣١/ ٧١ـ٧٤ .
(٢) تاريخ بغداد ١١/ ٣٩١ـ٣٩٢ ، والمنتظم ١٦/ ٤١ـ٤٣ . وينظر الكامل ٩/ ٦٤٤ .
(٣) زيادة من مصادر الترجمة .

زمن عمر بن الخطاب ﷺ، وهم أهل بيت رئاسة ومكانة، وتقدُّمٍ وعدالةٍ وفضائل، والمُسلمة جدَّتُهم من قِبَل الأم، واسمُها حميدة بنت عمرو، أسلمت سنة ثلاث وستين وثلاث مئة، وتزوَّجت يزيد بن منصور الكاتب، فأولدها ابنَه أبا جعفر محمد بن يزيد، وأولدها أبو جعفر أمَّ كلثوم واسمها قُرَّةُ العين، وهي ابنةُ المُسلمة، فتزوَّجها أبو القاسم الحسن بن عبيد بن عمر بن خالد، وبنوه بها يُعرفون ببني المُسلمة، وكان الوزير أحدَ الشهود العدول المبدئين ببغداد، ثم استكتبه القائم بأمر الله، واستوزره ولقَّبه رئيس الرؤساء، شرف الوزراء، جمال الوزراء، ومولده في شعبان سنة تسع وتسعين وثلاث مئة، وكان مضطلعاً بعلوم كثيرة، مع سداد رأي، ووفور عقل.

قال: رأيتُ في منامي كأنَّني وَطِئت على نَبْقةٍ كبيرةٍ، فأخذتُها فملأتْ كفي، وأُلقي في رُوعي أنها من الجنة، فعضضتُ منها عضةً، ثم نويتُ بذلك حفظ القرآن، وعضضتُ أخرى ونويت درس [الأصول، وعضضتُ أخرى ونويتُ درس] الفرائض، وأخرى ونويتُ النحو والعربية، فما عِلْمٌ من هذه إلا وقد رزقني الله منه.

وقال لأبي إسحاق الشيرازي في قول القائل لزوجته: إن دخلتِ أو خرجتِ إلَّا بإذني فأنتِ طالق، هل يُكتفى بإذنه فيه مرةً واحدة؟ قال: لا. قال الوزير: أليس قولُه: إن دخلتِ شرطٌ، وهو لا يقتضي التكرار، فلا حاجة إلى اعتبار الإذن في كل مرة؟ فقال أبو إسحاق: عَوِّلوا على هذا الدليل في المسألة.

ذِكْرُ مقتله:

[حكى الخطيب وقال]: لمَّا كان يوم الاثنين لليلتين بَقِيتا من ذي الحجة، أُخرِجَ [الوزيرُ أبو القاسم ابن المُسلمة] من حبس البساسيري بالحريم الطاهري مقيَّداً، وعليه جُبَّة صوف وطرطور من لُبدٍ أحمر، وفي رقبته مخنقةٌ فيها جلود مثل التعاويذ، على جمل، ووراءه إنسان يضربه بقطعة من جلود، وابن المُسلِمة يقرأ: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾ الآية [آل عمران: ٢٦]، وشُهِّرَ ببغداد، ومرُّوا به في الكَرْخ، فنثروا عليه خُلْقان المداسات، ولعنوه وسبُّوه، وأُوقف بإزاء دار الخلافة ساعةً، ثم أُعيد إلى العسكر عند سوق المارستان، وقد نُصِبت له خشبةٌ بباب خراسان بإزاء تربة الحال، فحُطَّ من الجمل، وخيَّطوا عليه جلد ثور قد سُلِخَ في الحال، وجُعِلَتْ قرونُه على رأسه، وعُلِّق

بكُلَّابين من حديد في فكَّيه[١]، ولمَّا أصعدوه الخشبة قال: قولوا للأجلِّ: قد بلغتَ أغراضَك مني، فاصطنعني لتنظر خدمتي، وإن قتلتني فغداً يأتي سلطان خراسان فيُهلك العباد والبلاد. فسبُّوه واستقوه[٢]، وكان البساسيريُّ قد أمر أن يُتْرَكَ الكُلَّابان في تَرقوته ليبقى حياً أياماً، يُعذَّب ويُطعم في كلِّ يوم رغيف لحفظ نفسه، فخاف متولِّي أمره أن يعفو البساسيري عنه، فضرب الكُلَّابين في مقتله، فقال عند موته: الحمد لله الذي أحياني سعيداً، وأماتني شهيداً. ولم يزل يضطرب عامة نهار الاثنين، ومات في آخره[٣].

[وذكر محمد بن عبد الملك الهَمَذَاني في تاريخه وقال]: ومن أعجب الاتفاقات أنَّه لمَّا ولي [الوزير أبو القاسم] الوزارة ركب إلى جامع المنصور بعدما خلع عليه، فأتى إلى تلٍّ وهو في موكبه، فقال: هذا مكانٌ مباركٌ، وفيه صُلِبَ الحلَّاج، وكان بيتَ عبادة قديماً. ثم نزل فصلَّى ركعتين، وأخذَتْه رعدةٌ شديدةٌ، فقال الناس: هو حلَّاجيُّ المذهب. فأقام في الوزارة اثنتي عشرة سنة، ثم صلب في ذلك المكان بعينه، فعلم الناس[٤] أنَّ رعدته كانت لذلك، وبلغ من العمر اثنين وخمسين سنة.

[وقال الخطيب: سمع أبا أحمد الفرضي وغيره]، وكان بين مقتله ومقتل البساسيري سنة. [قيل: في السنة الآتية في ذي الحجة أيضاً، وطيف برأسه ببغداد، في الجانبين، وسنذكره.

وفيها تُوفِّي]

علي بن محمد بن حبيب[٥]

أبو الحسن [القاضي]، الماوردي، البصري، الإمام، الفاضل، الشافعي [كان أحد الأئمة الفضلاء]، له تصانيفُ حِسانٌ، منها: التفسير، وسمَّاه: «النكت»، وكتاب

(١) في (ف): كفيه، وفي (م): مقتله.

(٢) هكذا في (خ) و(ب) ـ والخبر فيهما ـ وفي المنتظم، ولعلها: وشتموه، والله أعلم.

(٣) لم أقف على القصة في تاريخ بغداد.

(٤) في (خ) و(ف): فقال الناس وعلموا، والمثبت من (م).

(٥) تاريخ بغداد ١٢/ ١٠٢ـ١٠٣ ، والمنتظم ١٦/ ٤١ ، ومعجم الأدباء ١٥/ ٥٢ـ٥٥ . وتنظر بقية مصادر الترجمة في السير ١٨/ ٦٤ .

«الحاوي»، و«الأحكام السلطانية»، و«قوانين الوزارة»، وكتاب «الأمثال والحكم»، وكتاب «الإقناع»، وولي القضاء ببلدان كثيرة، وكان محترماً عند الخلفاء والملوك [وقد ذكرنا قصته مع جلال الدولة، وامتناعه من الفتوى في قولهم: شاهنشاه، وأرسله القائم إلى طُغْرُلْبَك، فأعطاه ثلاثين ألف دينار، وقد ذكرناه]، وكان زاهداً عابداً ورعاً مَهيباً، ما رأى أصحابُه شيئاً من بدنه قط، [وكان يقول: بسطتُ الفقه في أربعة آلاف ورقة.

وقال محمد بن الصابىء وغيره]: تُوفِّي بعِلَّة الفالج يوم الثلاثاء سلخ ربيع الأول، ودُفن بمقابر باب حرب، وقد بلغ ستاً وثمانين سنة [وبينه وبين أبي الطيب عشرون يوماً]، وكان ثقةً صالحاً، سيِّدَ أهل زمانه.

السنة الحادية والخمسون وأربع مئة

فيها في يوم الخميس ثاني المُحرَّم انصرف أبو الأغر دُبيس بن صدقة عن بغداد على غضب ومنافرة، وخيَّم على صرصر، فركب البساسيريُّ إليه، فردَّه وحدَه بغير مُخيَّمه، وبلغ له بعض غرضه، وانصرف يوم الأحد رابع المُحرَّم إلى بلده غير راضٍ، وسببه أنه كان قد احتجم عن المجيء إلى بغداد لمعاونة البساسيري؛ لعلمه ما اتَّفق عليه البساسيريُّ وقريش، ووقع فتحُها، فخاف من التأخُّر، واضطُرَّ إلى المجيء، وعرف ما أُخِذ من دار الخلافة وما أخذ قريش من الأموال الجليلة والأعمال المقسومة على تأخُّره، ونقم البساسيريُّ عليه بسبب ذلك، وخاطب البساسيريُّ في أمر أبي عبد الله بن المردوسي وحاشية الخليفة، وأن يُؤمنهم على نفوسهم، ويردَّهم إلى منازلهم، فلم تقع إجابة، ونسب البساسيريُّ أبا عبد الله المردوسي أنه منع زهرة جاريته وولديها المعتقلين بالجبل من الهرب حتى التجؤوا إلى داره، وسلَّمهم إلى ابن المُسلمة، فاعتذر المردوسي وأنكر، وقال: غُلِبتُ عليهم. فلم يقبَلْ عذره، ثم طالبه دُبيس بإقطاعه من السلطان، فما ردَّه، فرحل إلى بلاده وفي نفسه ما فيها.

وفي هذا الشهر تصالح أبو منصور بن يوسف مع البساسيري بواسطة قريش، وركب البساسيري وقريش إليه، وكان قد ضمن على نفسه مالاً يحمله إليهما.